مجلة المختار للعلوم الإنسانية 39 (1): 289-298، 2021

Research Article

Open Access

دلالات المكان في رواية زرايب العبيد للروائية نجوى بن شتوان

نجاح صالوح عبد السلام، أحمد بلال الأمين محمد
قسم اللغة العربية كلية التربية، جامعة بنغازي

Doi: https://doi.org/10.54172/gj729030

المستخلص: لم يخلُ الفكر العربيّ من هذه النزعة _نزعة المكان_ فبتطوّر الأدب تطوّر أيضًا مفهوم المكان، وأصبح أكثر خصوصيّة من ذي قبل، وقد هدف البحث إلى التعريف بالمكان وتأثيره على العناصر السردي، ثم تتبع التوالد العكسي للمكان، ونقطة الابتداء في النهاية هذه النقطة، حيث نجد أن الكاتبة قد استخدمت هذه التقنية بكثرة وبشكل واضح. ومن سيموطيقيا المكان إلى تعالق المكان بالعناصر السردية وهو تعالق يبدأ بمشكلة فك الارتباط مع المكان المحدد الواضح إلى التشبيك مع عدد من الأمكنة التي تختفي تارة وتعو تارة أخرى بحسب دواعي الأحداث، والنتيجة توالي مشوق وأحداث لا يتوقعها القارئ.

الكلمات المفتاحية: الفخار، الخزف المعاصر، الحديقة.

The Significance of Place in the Novel "Zarayib Al-Abid" by the Novelist Najwa Ben Shtawan

Najah Salah Abdessalam, Ahmed Bilal Al-Amin Muhammad
Arabic Language Department, Faculty of Education, University of Benghazi

Abstract: The Arab intellectual thought has not been devoid of this tendency - the tendency of place. With the evolution of literature, the concept of place has also become more personalized than before. The aim of the research was to define the place and its impact on narrative elements, then to trace the reverse development of the place, and finally to point out the starting point, where we find that the writer has used this technique abundantly and clearly. From the semiotics of place to the interrelation of place with narrative elements, it is a correlation that begins with the problem of breaking the bond with the specific defined place to interweaving with a number of places that disappear at times and reappear at other times according to the events, and the result is a compelling sequence of events that the reader does not anticipate.

Keywords: Pottery, contemporary ceramics, garden.

The Author(s) 2023. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/) , which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium ,provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

المقدمة

المكان من مكوّنات العمل الأدبيّ المهمّة؛ فهو يمثّل العمود الفقريّ الذي يربط أجزاء الرواية بعضها ببعض، ويبدو المكان حاضرًا في العمل الروائيّ، حضورًا يعكس رؤية وإيديولوجيّة عامة يظهر المكان من خلالها متعدّدًا متباينًا، يعرض حضوره القويّ على المُنشئ والدارس، فلا سبيل للاستغناء عن المكان لكليهما، ويبقى المكان عالقًا بذهن المتلقّي، مُتربّعًا في ذاكرته، مُرتبطًا في وعيه ولا وعيه بأحداث العمل الفنّيّ.

والمكان بصفة عامّة هو الموضع الذي يعيش عليه الإنسان، وهذا الموضع يشمل السكن والعمل وسائر أوجه النشاط والعلاقات الإنسانيّة، ويشهد هذا المكان التقلّبات الحياتيّة والشعوريّة للإنسان القاطن فيه، ويتّسع المكان ليشمل الطبيعة من حوله؛ من صحراء وغابات وقرًى ومدن، وما يعتري هذه الأمكنة من تقلّبات الطقس التي تنعكس على تكوين المكان وتكوين الإنسان.

والدلالة اللغويّة _بصفة عامّة_ للمكان في المعاجم العربيّة تُشير إلى أنّ المكان هو: الموضع للإنسان والحيوان، وتعني أيضًا الاستقرار والوجود والثبات في ذات المكان، وبالتالي فإنّ المعنى متّفق مع الدلالة المُبتغاة في العمل الفنّيّ؛ هذه الدلالة بمعناها اللغويّ هي المقصودة والمفهومة لدى الباحث والقارئ، خاصّة أنّ هذا المصطلح مستخدم في الدراسات الأدبيّة منذ عقود.

وبعبارة أخرى فقد ارتبط المكان بالرؤية الأدبيّة؛ ولكن تغيّرت استعمالاته، وتعدّدت أوصافه، وتباينت النظرة النقديّة إليه، يقول(حلّاق، 2014.م: ص12،11) "**إنّ تغيّر الزاوية التي تنظر من خلالها للمحيط المكانيّ، كانت تحتمل رؤية جديدة للإنسان، سُمّيت بالإنسانيّة، أو بالنزعة الذاتيّة، وهي أصل الذاتيّة أو الفرديّة الحديثة... إنّ الوجود والخلق هو إدراك المكان، وتحديد موقعك بمقاييس محدّدة فيه، تلك هي نقطة البداية الحقيقيّة للفنون التشكيليّة والأدبيّة الحديثة، بدءاً من المسرحيّة والرواية**".

ولم يخلُ الفكر العربيّ من هذه النزعة _نزعة المكان_ فبتطوّر الأدب تطوّر أيضًا مفهوم المكان، وأصبح أكثر خصوصيّة من ذي قبل، واعتمد مبدئيًّا على محاكاة الأعمال الأوروبّيّة، أو الالتفات نحو الخلف حيث السرد العربيّ التقليدي؛ مثل أدب الحكايات، والمقامات، وغيرها، بيد أنّ

هذا الالتفات كان مقيّدًا بتقنيات روائيّة وسرديّة لا تناسب حداثة العصر؛ وبالتالي أحسّ الروائيّ العربيّ بصفة عامّة إلى إجادة تقديم شخصيّاته؛ بناء على تغيّر المكان الذي يفرضه تقدّم الزمن وتطوّر مناحي الحياة الإنسانيّة.

وبهذا التطوّر لم تعد الرواية –بصفة عامّة– هدفًا للتسلية أو قضاء الوقت؛ بل أصبحت عملًا فكريًّا وفنّيًّا يتطلّب جهدًا خاصًّا من المُنشئ؛ وبالتالي جهدًا متميّزًا من المتلقّي؛ فالرواة الحديثة تأثّرت بعلم النفس، وفلسفة العصر، وسيموطيقيا المكان، ونسبيّة الزمن، فأصبحت الرواية عملًا يتطلّب من القارئ شيئًا من الإلمام بالحضارة الإنسانيّة وما مرّ بها من سقطات، وأيضًا شيئًا من الارتباط بالعالم الخارجيّ لشخوص الرواية، هذا العالم الخارجيّ قد تختصره في المكان، هذا العالم الخارجيّ يشوبه نوع من التوالد التراتبيّ أو العكسيّ؛ فقد يكون المكان الأخير هو المولّد العكسيّ، أي التفات المُنشئ من خلال المكان إلى أحداث ما قبل هذا المكان، فيتولّد عنه ذكر لأمكنة أخرى تعزّز معنى (كان، والكينونة) المنبثقتان من مصطلح المكان.

وقد يكون التوليد تراتبيًّا لا يحتاج إلى كبير جهد من المنشئ والمتلقّي، وبهذا يمكن النظر إلى المكان الروائيّ كمدخل ضمن مجموعة مداخل إلى النصّ الروائيّ، ويمكن أيضًا الوقوف على مراميه ومدلولاته ورموزه وما فيه من جماليّات الوصف، إلى جانب جمال السرد الروائيّ، يقول (غاستون، 1984: ص148): "حين نمنح شيئًا ما مكانا شعريًّا فذلك يعني أنّ تعطيه مساحةً أكثر ممّا تعطيه موضوعيّة، أو بكل أدقّ أنّ الشيء يتبع تمدّد مكانه الحميم... علينا أن نأمل أن تعطي المادّة مكانها الفرديّ، وكلّ اللحظات التالية تعطي لحظاتها السابقة؛ وليت المادّة كلّها تحقّق الانتصار على مكانها، وقدرتها على الامتداد متجاوزة كلّ السطوح بالوسائل التي يحبّ المهندس أن يحدّدها" ، نعم كلّ ذلك يُعدّ من الجماليّات، جماليّات المكان الممتزج بالألفة والحميميّة، والخارج من حدود الهندسة والمحسوس.

ولعلّ تمكين عنصر المكان والاهتمام به عند باقي مكوّنات السرد يرجع إلى احتوائه على هذه الجماليّات، وإلى ارتباطه بالإنسان، بل يتجاوز ذلك إلى جعل المكان امتدادًا طبيعيًّا لحياة وشعور الإنسان، فهو مرتبط بالإيجابيّات والسلبيّات في نظر الإنسان، كما أنّ للمكان دورًا آخر في العمليّة السرديّة؛ حيث يُفهم من خلاله سلوك الفرد، ومواقفه الانفعاليّة، فالمكان سلطان العناصر السرديّة،

بل يمكن القول إنّه المُطلق لها فتخضع له هذه العناصر والمكوّنات، وتلعب أيضًا دور المترجم لدلالات هذا المكان.

المكان حياة؛ فهو ليس سلبيًّا ولا صامتًا؛ ولكنّه يحمل دلالة تتخلّل جميع الأبعاد والإحداثيّات والأركان، والظواهر الطبيعيّة والأشياء؛ والنصّ الفنّيّ هو خير من يمثّلها، فحين يولي النصُّ المكانَ هذه الأهمّيّة، فهو بذلك يمنح المتلقّي مجموعة من العلامات عليه وعلى مكوّناته، فتكون هذه العلامات هي مكوّن سيميائيّ بمثابة الوسيط بين المبدع والقارئ، تكون لها نقطة انطلاق مكانيّة، يتوالد من هذه النقطة أمكنة أخرى ترتبط بأحداث أخرى، هذا التوالد قد يكون عكسيًّا نحو الماضي، أو تزامنيًّا نحو المستقبل.

والمكان في (زرايب العبيد) هو علامة وحيّز وفضاء؛ علامة ذات دلالات نفسيّة ومعنويّة باعتباره محرّكًا أساسيًّا لمجريات أحداث الرواية؛ ويتنوّع مع تنوّع الحدث، بل ويؤسّس له؛ فالحدث بحاجة إلى مكان بقدر حاجته إلى فاعل نصّيّ وزمن؛ بل إنّ المكان في حياة إحدى البطلتين هو التغيّر، تغيّر في الهويّة والثقافة، بل وحتّى الشكل باعتبار أنّ إحداهما تميّزت عن أترابها بسبب نشأتها في إرساليّة تبشيريّة، ويعتبر هذا المكان على قلّة ذكره في الرواية، هو نواة التغيّر في شخصيّة البطلة الابنة، فهو المولّد اللّا مرئيّ المبين لقبح أمكنة أخرى، تقول عتيقة الابنة عن الإرساليّة: "وجدت نفسي في الإرساليّة اليوسفيّة في (الفويهات) تحت رعاية الأخوات الراهبات، كُنّ يمنحنني اهتمامهنّ بكل عظيم حتّى أتماثل للحياة" ، ولعلّ القارئ قد يستغرب هذا الولوج المُفاجئ لرواية زرايب العبيد، ولوجًا لا نذكر معه شيئًا من أحداث الرواية؛ ولعلّنا نأمل من خلال استعراض المكان وتجلّياته في زرايب العبيد، أن يتّضح للقارئ موضوع الرواية، وتقلّبات البطلتين النفسيّة والجسديّة، والتأثيرات المجتمعية في فترة إنهاء الحكم العثماني ودخول الاحتلال الإيطاليّ.

يتّخذ التوالد المكانيّ في رواية زرايب العبيد تنويعات وتشكّلات تفرضها الأحداث، فحين يظنّ القارئ للوهلة الأولى أنّ هذا المكان هو نواة الحكاية، ترجع به الكاتبة بطريقة (الفلاش باك) سريعًا ليتوالد عن هذا المكان أماكن أخرى أكثر تأثيرًا بطريقة عكسيّة، وكأنّها تجمع بين جنديّات ثنائيّة أو أكثر، أو بين قوى وعناصر متعارضة، فالبطلة الابنة التي استوطنت زرايب العبيد في (الصابري) ، تواجه البحر كلّ يوم، ولكنّ هذا البحر الذي يرمز للجمال والاسترخاء، كان المكان التعيس بالنسبة إليها، المكان الذي يذكرها بحرقة الرق والتمييز العنصري.

يعمل التوالد المكانيّ في هذا العمل على تكوين مجموعة من الأشياء المتجانسة، والظواهر والحالات والصور المؤدّية إلى كمٍّ هائل من الدلالات المتغيّرة؛ هذه الأماكن بتنوّع توالدها واختلاف صفاتها (القرب، البعد، الانفتاح، الانغلاق... الخ)، تمثّل سلسلة العلاقات المكانيّة المعتادة وغير المعتادة، كلّ هذا يقدّم للقارئ نموذجًا اجتماعيًّا ايديولوجيًّا متكاملًا خاصًا بالنمط الثقافيّ السائد في تلك الحقبة، وسيختصّ هذا البحث بدراسة التوالد العكسيّ.

وقد اتبعنا في هذا البحث المنهج التحليلي للنصوصالمتعالقة أكثر بالمكان ،لتتبع متغيرات المكان وتجلياته في الرواية، ومدى تأثيره في الأحداث.

المبحث الأول: التوالد العكسيّ للمكان

ترتبط دلالة المكان –في الغالب– بالأحداث التي تتمّ في الماضي والمستقبل؛ ليشكّل لنا النصّ الروائيّ شيئًا من الواقعيّة والتاريخيّة، في زمن أو أزمان متعدّدة، فلا يمكننا تصوّر المكان من غير المرجعيّة الزمنيّة، ومن ثمّ فإنّ حضور المكان هو غالبًا استدعاء لكمٍّ من الدلالات المساعدة في عملية التخييل؛ هذا المكان بتعدّديّته وتوالده يكشف الواقع المعيش لفئات المجتمع، ويكشف عن تباين ثقافاتهم ورغباتهم لتقدّم أحداث النصّ ممتزجة بين الواقع الفعليّ وبين الجانب الخياليّ مرتكزة على القيم والدلالات الرمزيّة والثقافيّة والواقعيّة حسب رؤية الكاتب.

والمكان في رواية (زرايب العبيد) بداية يتوالد عكسيًّا؛ فيبدأ من الاستقرار، استقرار الابنة، ولكنّ هذا الاستقرار ما يلبث أن يتغيّر حين يطرق القادم الغريب بابها "شارع ترابيّ طويل وضيّق، تراصّت البيوت على طرفيه جنبًا إلى جنب، جمع بينها الشكل والطلاء البيض... تخلّلها بعض الدكاكين الصغيرة... وفي انعطافته مع شارع آخر ثمّة صيدليّة صغيرة بلا يافطة... أطلقوا عليها اسم (دكّان جوسيبي)، قال صبيّ لأمّه في أحدهاتيك البيوت: هناك رجل كبير يقف بالباب يريدك"، من هذا المكان الموحي بشيء من الأمان والاستقرار للابنة ستتوالد أمكنة وأحداث نحو الماضي غالبًا، هذا الماضي يبدو للقارئ متوازيًا: ماضي الأمّ وماضي الابنة، حيث يبدو للوهلة الأولى أنّ الرواية تعالج سيرة حياة؛ ولكنّ القارئ ما يلبث بعدها أن يدرك أنّها سيرة عرق بأكمله، يقول(جينيت 1997.م: ص9): عن هذا النوع من الكشف: "**أن الفنان يكشف جوهر الكائنات والموجودات والفضاءات والأزمنة، انطلاقًا من تذكّر الأحاسيس المعيشة ...، ومن ثمّ فإنّ مهمّة العمل الفنّي لا**

تتأسّس إلّا في الأبنية الملتفّة... وكما أنّ هدف العمل الفنّيّ لا يتحدّد في وصف الأشياء ومحاكاة الواقع محاكاة كاملة أو جزئيّة" ، هذا نوع من الكشف عن الجوهر نراه جليًّا في توالدات الأمكنة في زرايب العبيد، فلا تلبث "عتيقة" بعد لقاء "عليّ بن شتوان" الذي يُعدّ ابن خالها أن تختفي قليلًا ليبرز لنا ظهور الأمّ "تعويضة"، ولكن قبل هذا الاختفاء ستُبيّن لنا "عتيقة" من خلال فلاش باك مباشر ودون مقدّمات المكان الذي غيّر حياتها "في الإرساليّة" وتحدّثت قائلة: "وجدتً نفسي في الإرسالية اليوسفيّة في الفويهات تحت رعاية الأخوات الراهبات؛ كُنَّ يمنحنني اهتمامهنّ بشكل عظيم، .. كان يوسف وراء استبقائي في عهدة الراهبات بعد مغادرتي المستوصف؛ كان ذلك يسيراً وسهلًا في ذلك الحين، أطفال كثر أيتام، سود وغيرهم، تعهّدتهم الإرساليّة؛ علّمتهم القراءة والكتابة؛ وقواعد السلوك وآدابها؛ مسحت عنهم أشياء ووضعت أشياء أخرى أكثر رقيًّا وتمدّنًا؛ أحبّها الأطفال والتزموا بها حتّى أصبح الفرق واضحًا بين الإنسان الذي أشرفت على إعداده الراهبات والإرساليّات، وبين الآخر الذي نشأ في عائلة فقيرة ... في الإرساليّة تعلّمت الكتابة والقراءة بالإيطاليّة، ... واكتشفت أنّ العالم يحوي أشياء مهمّة تُسعد القلب وتجعل الوقت ممتعًا...".

تعد الكنيسة –على قلّة ذكرها في الرواية– هي النواة.. هي الأساس.. التعبير، ويبدو أنّ هذا الذكر للكنيسة (باعتبارها المكان المؤثّر) بروز دور الإرساليّة كمكان أساس حوّل حياة البطلة وغيّر حياتها ناقلًا مؤشّراتها للاتّجاه المعاكس تمامًا؛ فقد مثّل المكان اللّا مرئيّ –حتّى الآن– رمز الظلم والتبعيّة والاستغلال، والتخلّي عن القيم البشريّة؛ و مثّلت الزرايباللًا مرئيّة –حتّى الآن– انتهاكًا لأقلّ معاني الإنسانيّة وحقوق البشر، نعم.. يُلاحظ بروز الإرساليّة.. بروز يعطي معاني التقويم والإصلاح والسكينة والاستقرار، لكنّها أيضًا –أي الإرساليّة– وليد سريع في خضمّ التوالد المكانيّ، لتبقى الزرايب التي أخفت ما أخفت عن "عتيقة" شاخصةً حيّةً أمامها (وكنت إنما أعيد ميراث أجدادي الذين استعبدهم أجدادي،مغمضة العينين كي لا يرى موتي موتي، كان أخر ما رأيت من مأساة الزرايب دخانا أسود كثيفا حجب الأرض والسماء،رائحة كريهة لأجساد بشرية وحيوانية شويت حية، روح أمي غير المطعونة تختنق من سواد خلقت وإليه تعود) الزرايب ذلك الفضاء المفتوح على بحر بنغازي كان عالمًا يموج بالألم؛ بحرّيّة نالها الرقيق، ولكنّ الزرايب استعبدتهم حتّى أحرقها الطاعون، وهنا تقابل المكان (المغلق الحرّ المفتوح المُستعبِد) هذا التقابل كان له دور مهمّ في تحديد فضاءات الرواية المؤثّرة في البطلة الابنة.

عكسيًّا "وبظهور عليّ بن شتوان ابن عمة تعويضة" يتوالى التوالد العكسيّ للمكان ليعود إلى اللقاء الأوّل في المكان الأوّل، لقاء والدتها "الأمَة السوداء" بوالدها السيّد "محمّد بن شتوانالمصراتيّ الأحمر كالألمان" ، شخصيّة الأمَة السوداء حيث التقت سيدها الثمِل للمرّة الأولى، كانت شخصيّة مؤثّرة ومتأثّرة؛ فهي مؤثّرة في أحداث الرواية من حيث نشوء قصّة الحبّ المحرّم، وارتباط السيّد بها دون غيرها؛ ومؤثّرة أيضًا حين أنكرت هويّتها فيما بعد لتحمي ابنتها، وطفلًا آخر كان قدره أن يُرمى في قمامة بنغازي لكن الأمة الشجاعة أنقذته من مصير قاس؛ ولهذه الأماكن حكايات أخرى.

المكان الوليد الأوّل "غرفة تعويضة" المتواضعة التي تبدو للقارئ مكانًا مغلقًا؛ ولكنّه لتعويضة كان مفتوحًا، مفتوحًا على كمٍّ هائل من الأفكار والعواطف المتناقضة، فها هو السيّد يبيت في غرفتها دون أن يعي "انكمشت بجانب الباب، ولم تستبدل ثوبها المُبلّل... كانت ترمقه على ضوء السراج، غير مصدّقة أنّه السيّد محمّد الصغير الذي سمعت عنه ما يوقف القلب... ماذا تقول له حين يصحو ويجد نفسه في فراش خادمته الوضيع؟ ... ربّما اعتقد أنّه لمّا ثمِل ليلة أمس نام مع الخادمة وخشي أن يكون ذلك وقع حقًّا، سألها مُتجهّمًا :

ماذا حدث البارحة؟

قالت: لا شيء يا سيّدي، كنتَ تقع في المطر وأنا أدخلتك.

أطرق صامتًا ثمّ سألها:

أين نمتِ؟

لم أنم.

لماذا؟

لأنّك نمتَ مكاني "..

هه الغرفة هي انطلاقة آمال وآلام تعويضة؛ فقد مثّلت في البداية الأمان والاستقرار، ثمّ انتقل إلى هذا المكان، إلى الرمز لمشاعر أكثر إشارة، كالحبّ كالارتباط، وكان لا بدّ أن يُلتقط المكان بعين الأنثى؛ الأنثى في الرواية.. والأنثى الكاتبة يقول الناقد(صلاح، 2008: ص125): "**الرجل**

في الرواية يُعيد بناء العالم، أمّا بالنسبة للمرأة فإنّ الرواية هي تركيبٌ للمشاعر، الرجل يكتب الرواية بعقله، بينما تكتب المرأة الرواية بقلبها، العالم هو المركز لما يمكن أن نسمّيه رواية الرجل، بينما نجد أنّ الذاتهي مركز الرواية النسائيّة".

فغموض هذه الغرفة البسيطة كان تركيز المشاعر في المكان هائلًا، كان المكان البداية.. الخلق.. كل ما قبله بالنسبة لتعويضة... لا مكان.. لا شيء، هذا المكان يأتي موازيًا للمكان النواة في حياة الابنة (الكنيسة).

المبحث الثاني: المكان والعناصر السرديّة

السرد بصفة عامّة في زرايب العبيد لا يبدأ من الصفر؛ بل بفكّ الارتباط بين الحاضر (عتيقة) والماضي (تعويضة)، وذلك عن طريق الابتداء من النهاية، ويأتي هذا في إطار انتهاء شخصيّة (تعويضة) وابتداء ظهور (صبريّة) الراعية للطفلة (عتيقة) والطفل (مفتاح)، وبهذا الفكّ تتشعّب الشخصيات، وتدور العناصر السرديّة (الشخصيّات + الحبكة + الحدث ...) حول المكان وتعدديته، فأحداث الرواية تغطّي حقبة زمنيّة تمتدّ من شباب الأمّ إلى زواج الابنة، وبالتالي فأحداثها تُسرد في أماكن مختلفة من العصيّة (بنغازي)، وكلّ هذه الأماكن كأنّها عالم منفصل عن الآخر على الرغم من واحديّة المدينة، فالزرايب عالم العتق واللّاعتق؛ وبيت ابن شتوان عالم العبوديّة والحبّ، وهكذا تمضي التناقضات المكانيّة متفاعلة مع عناصر السرد بل ومتماهية فيها، كما تضمّ الرواية عدّة حبكات فرعيّة ورئيسيّة وهي أيضًا يحكمها التعدّد المكانيّ.

وفي الغالب يبدو بيت ابن شتوان (مُبهمًا قليلًا) بينما (براريك الخدم) تبدو أكثر وضوحًا بسبب وقوع غالب الأحداث فيها (في هزيع الليل الأخير وهما تتّكآن على مرتبتيهما في برّاكةعيدو، كان المطر ينقر خفيفًا على الزينقو، والكانون يرسل الدفء بتؤدة متفاعلًا مع حفنة بخور زكيّ الرائحة؛ ... حدّثتها تعويضة عن ليلة ملؤها السحر والغرام... جلسا معًا في مربوعة الصديق.

من البرّاكة للمربوعة.. ومن المربوعة للدكّان.. وهكذا فللمكان كما يرى (الجبوري، : ص46) (شفراته الخاصّة التي لا تظهر إلّا بوجود علاقات ما مع غيره؛ إنّه يبثّ ويستقبل عبر تنظيم أشمل من محتويات المكان نفسه؛ وموضوع ضمن سياق ثقافيّ اجتماعيّ، يشترك مع غيره في صياغة جماليّة عامّة).

هذه الصياغة البنيوية هي في الواقع سيموطيقيا المكان؛ حيث يُحيلنا على العلامات إلى تجاوز الإدراك المادّيّ البحت للمكان؛ نحو كمّ هائل من الرموز والعلامات والعلاقات مع الشخوص والأحداث باعتبار أنّ هذه العلامات لا تدخل في البنية التفصيليّة للمكان، فالمكان في الزرايب هو كتل من الانفعالات والذكريات؛ بل بانتهاء الزرايب تنتهي (تعويضة = صبريّة)، وبالمكان تبدأ (تعويضة) فقط، (تعويضة) عاشت شيزوفرينيا من نوعين (مكان، وشخصيّة).

نعم... احترقت الزرايب واحترقت معها (تعويضة وصبريّة) التي عاشت بشخصيّة أخرى لتحمي نفسها من جبروت آل (بن شتوان)، غير أنّ سيّدها عرف طريقها واستمرّت أواصر المحبّة تجمع بينهما، وكانت ثمرة هذا الحبّ (عتيقة)؛ عتيقة الابنة التي عاشت مع أمّ تناديها (عمتي صبريّة).

وكان للحدث أيضًا ارتباط بالمكان؛ فالحدث المؤثّر الأوّل له علاقة مباشرة بالزرايب، حيث جعلنا حدث احتراق الزرايب نلجُ إلى العالم الخفيّ (تعويضة)، فحرّكنا تخييل الكاتبة "من أجل الكشف عنه، وتأسيس المطابقات بينه وبين العالم المرئيّ؛ فينقلنا التخييل بعبير آخر من المنتهى إلى غير المنتهى". كما يرى (أدونيس 2016: ص 198).

هذه المطابقات تجعل من السهل على القارئ تتبّعها؛ حيث يسهل امتزاج المكان بعناصر السرد ذلك.

امتزج المكان بقوّة في زرايب العبيد مع الشخصيّات والأحداث فانتهى ومات المكان الذي قدم منه العبيد، لتتماهى شخصيّاتهم مع مدينة الملح؛ فلا تدري أأحبّوها أم تقبّلوها، وباحتراق المكان العنوان (زرايب العبيد) فينهار الجدار الحامي للأسرار ممثَّلًا في (صبريّة = تعويضة) فنرى امرأة انسلخت من هويّتها وعاشت بهويّة أخرى حماية لابنتها، وابنها الذي خشيت عليه غوائل الطريق، فتبنّته طفلا، ليرجع إلى أمّه رجلا كي تقرّ عينها.

الزرايب بصفة عامّة هي معاناة فئة أُهينت بما يخطر ولا يخطر على بال؛ كانت بنغازي نموذجًا مكانيًّا واحدًا يمثّل معانتهم في أماكن أخرى كثيرة؛ فعانوا من قسوة عائلاتها، وعانوا من كونهم غرضًا يُباع ويُشترى ويُقتل، وتتعرّض الإناث منهم للإجهاض الذي قد يودي بحياتهنّ.

فالرواية تناقش هذه المعاناة من خلال شخصيّة تعويضة مع ذكر عدد من الأماكن التي شهدت هذه المعانة؛ بالمقابل فابنتها من سيّدها (ابن شتوان) قُيّض لها أن تعيش حياة أفضل وتتزوّج وتُنجب، وتنال حقوقها وأوراقها بفضل المُستعمر الإيطاليّ، الذي كان بالنسبة للعبيد خلاصًا لا استعمارًا.

الخاتمة:

وختامًا فالمكان في الزرايب هو الأصل والأساس الذي يحتضن عناصر السرد الأخرى، وهو العمود الذي عنونت به الكاتبة روايتها، فشكّلت نوعًا من التعالق بين العناصر السرديّة، هذا التعالق قد يأتي ضدّيًّا، كاجتماع الضدّين (الغنيّ والفقير، الحريّة والعبوديّة) داخل سور وواحد، حيث يشير (ظاهر، 2008: ص 131) قائلا: "فليس هناك تضادٌّ مطلق بين أيّ عنصرين، إنّ بإمكاننا في الحقيقة وضع أي عنصرين في الكون في علاقة عامّة عنوانها التقابل دون الاختلاف، فالتقابل بشكل عامّ هو النسق الأهمّ في اللغة، والذي يرفعها من المستوى الميكانيكيّ في تسمية الأسماء في الواقع وترتيبها في علاقات قواعديّة؛ إلى مستوى ديناميكيّ يتمثّل في القدرة على الغوص في أعماق الأشياء، وإدراك حقيقة ارتباطها بعضها ببعض".